

من سيرة أهل  
البيت

الطبعة الأولى - طبع في بيروت - لبنان

\* ولِي أمر المسلمين

آية الله

السيد الطاهري (دام ظله)

ترجمة: د. محمد علي

ادرش

## قيادة

# الأمام الصادق

٢



حياة الامام الخامس من ائمة آل البيت محمد الباقر عليه السلام  
استمرار منطقي لحياة الامام السجاد عليه السلام

اصبح اتباع أهل البيت مجموعة متميزة ذات وجود مستقل، ودعوة  
أهل البيت التي اعترتها وفقة واحتجبت وراء ستار سميك بسبب حادثة  
كربلاه وما أعقبها من حوادث دموية كوفعنة الحرّة وثورة التوابين وبسبب بطش  
الامويين، قد أصبح لها وجود منتشر واضح في كثير من الاقطاع الاسلامية  
خاصة في العراق والهزاز وخراسان، واصبح لها «تنظيم» فكري وعملي. وولت  
تلك الايام التي قال الامام السجاد عليه السلام عنها: إن أتباعه ما كانوا يزيدون فيها على  
عشرين شخصاً. وأضحى الامام الباقر عليه السلام يدخل مسجد النبي عليه السلام في المدينة  
فيلتف حوله جموع غفيرة من أهل خراسان وغيرها من اقطاع العالم الاسلامي،  
يسأله عن رأي الاسلام في مختلف شؤون الحياة. ويُفدي عليه امثال طاووس  
اليمني وفتادة بن دعامة وابو حنيفة وآخرون من ائمة المذاهب الفقهية ليتهلوا من  
علم الامام او ليحاجوه في امور مختلفة. ويزد شعراء يدافعون عن مدرسة اهل

البيت، ويُعتبرون عن أهدافها، منهم الكميٰت الذي رسم في هاشميٰاته أروع لوحة فنية في تصوير الولاء الفكري والعاطفي لآل بيت رسول الله ﷺ. وتناقلت الانسٰن هذه الروائع الأدبية وحفظتها الصدور. ومن جهة أخرى فان خلفاء بنٰي مروان أحستوا خلال هذه الفترة بنوع من الطمأنينة، وشعروا بالاستقرار بعد أن استطاع عبدالمالك بن مروان (ت ٨٦هـ) خلال فترة حكمه التي استمرت عشرين عاماً أن يقمع كل المعارضين. وقد يعود شعور الخلفاء المروانيين في هذا العصر بالأمن والاطمئنان إلى أن الخلافة وصلتهم غنية باردة، لا كأسلافهم الذين كدحوا من أجلها مما ادى إلى انشغالهم بالله وملذات التي تصاحب الشعور بالاقتدار والجاه والجلال.

مهما يكن الامر فان حساسية خلفاء بنٰي مروان تجاه مدرسة اهل البيت قد فلت في هذا العصر، واصبح الامام واتباعه في مأمن تقريباً من مطاردة الجهاز الحاكم. وكان من الطبيعي أن يقطع الامام خطوة رحبة في ظل هذه الظروف على طريق تحقيق أهداف مدرسة أهل البيت، ويدفع بالتشييع نحو مرحلة جديدة. وهذا ما يميز حياة الامام الباقر علیه السلام.

ويمكن تلخيص حياة الامام الباقر علیه السلام خلال الاعوام التسعة عشر من امامته (٩٥ - ١١٤هـ) بما يلي:

ابوه الامام السجاد علیه السلام عندما حضرته الوفاة أوصى أن يكون ابنه محمد اماماً من بعده في حضور سائر ابنيه وعشيرته وسلمه صندوقاً. تذكر الروايات أنه مملوء بالعلم.. وتذكر أن فيه سلاح رسول الله علیه السلام وقال له: «يا محمد هذا الصندوق فاذهب به إلى بيتك. ثم قال: أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكنك كان مملوءاً علمًا». لعل هذا الصندوق يرمز إلى أن الامام السجاد سلم ابنه محمدًا مسؤولة القيادة الفكرية والعلمية (فالصندوق مملوء بالعلم) وسلمه مسؤولية القيادة الثورية (سلاح النبي).

ومع بدء الامام واتباعه بنشاطهم الواسع في بث تعاليم أهل البيت علیه السلام، يتسع نطاق انتشار الدعوة، ويتخذ ابعاداً جديدة تبتعد مناطقها السابقة في المدينة والكوفة، وتجد لها شيوخاً في أصقاع بعيدة عن مركز السلطة الاموية، وخراسان في مقدمة تلك البقاع كما تحدثنا الروايات التاريخية.<sup>٢</sup>

(١) بحار الانوار ٤٦: ٤٦  
باب ٤ عن البصائر ٤: ٤٤

(٢) من ذلك رواية أبي حمزة الشمالي يقول: «حتى أقبل أبو جعفر علیه السلام وحوله اهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج» (بحار الانوار ٤٦: ٣٥٧ ط: بيروت)،  
وانظر حديث أحد علماء خراسان مع عمر بن عبد العزيز، وفيه اكتُر من عبرة ودلالة. (بحار الانوار ٤٦: ٣٦٦)

ان الواقع الفكري والاجتماعي المزري للناس كان يدفع الامام واتباعه نحو حركة دائمة لا تعرف الكل والممل من أجل تغيير هذا الواقع والنهوض بالواجب الالهي إزاء هذا الانحراف.

إنهم يرون غالبية الناس قد خضعوا للجو الفاسد الذي أشاعه بنو أمية، ففرقوا إلى الاذفان في مستنقع حياة آستة موبوءة، حتى أضحووا كحكاهم لا يفهون قوله،

ولا يصيغون لنصيحة سمعاً «إن دعوئهم لم يستجيبوا لنا».<sup>٣</sup>

ومن جهة أخرى يرون دراسات الفقه والكلام والحديث والتفسير تتحوّل من حي استرضاء الطاغوت الاموي وتلبية رغباته. ومن هنا فان كل ابواب عودة الناس إلى جادة الصواب كانت موصدة لولائهم مدرسة اهل البيت بواجبها « وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا».<sup>٤</sup>

اتجهت مدرسة أهل البيت فيما اتجهت إلى تجريع أولئك الذين باعوا ذممهم من العلماء والشعراء، في محاولة إلى إيقاظ ضمائرهم أو ضمائر اتباعهم من عامة الناس.

نرى الامام يقول للكمي الشاعر مؤنباً:  
«افتتحت عبدالملك؟» قال: ما قلت له يا إمام الهدى، وإنما قلت ياأسد والسد كلب، ويأ شمس والشمس جماد، ويأ بحر والبحر موات، ويأ حية والحياة ذؤيبة منتنة، ويأ جبل وإنما هو حجر أصم. فتبسم الامام وأنشد الكمي بين يديه:

من لقب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام<sup>٥</sup>

وبهذه الميمية يضع الحد الفاصل بين الاتجاه العلوي والاتجاه الاموي في المكانة والسيرية في صورة فنية رائعة خالدة.

وعكرمة تلميذ ابن عباس المعروف وصاحب المكانة العلمية المرموقة في المجتمع آنذاك، يذهب لمقابلة الامام، فيؤخذ بهيبة الامام وشخصيته ووقاره ومعنىاته وفكرة، فيقول له: «يا ابن رسول الله لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره، فما أدركني ما أدركني آنفاً».

فقال له الامام: «إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويدرك فيها اسمه».<sup>٦</sup>

ومن الأبعاد الأخرى لنشاط مدرسة أهل البيت في هذه المرحلة سرد ما احاط

(٢) من حديث للامام الباقر عليه السلام في ارشاد الشیخ المتفیی: ٢٨٤، وبخار الانوار ٢٨٨: ٤٦.

(٤) بخار الانوار ٤٦: ٢٨٨.

(٥) المناقب ٤: ٢٠٧ وهذه الميمية من هاشميات ونبتها يخاطب أئمة أهل البيت عليهما السلام فيقول:

ساسة لا يكمن بربى ربعة النا سواه وربعيه الانعام وهو بيت له دلالته الكبيرة.

(٦) بخار الانوار ٤٦: ٢٥٨.

بأهل بيت رسول الله وأتباعهم من ظلم واضطهاد وقتل وتشرييد وتعذيب في محاولة لاستئثار عواطف الناس الميتة، وتحريك ضمائرهم الرخوة، واستئثار عزائمهم الراكرة، وتوجيههم وجهاً ثورياً حركياً.

عن المنهاج بن عمر قال: كنت جالساً مع محمد بن علي الباقر عليهما السلام اذ جاءه رجل فقال له: كيف انتم؟ فقال الامام الباقر:

«أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن؟ إنما ملتنا في هذه الأمة مثلبني إسرائيل، كان يدبّح أبناءهم وتستحبّن ساواهم، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحبّون نساءنا. زعمت العرب أن لهم فضلا على العجم، فقالت العجم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد منا عربياً. قالوا لهم: صدقتم. وزعمت قريش أن لها فضلا على غيرها من العرب، فقالت لهم العرب من غيرهم: وبما ذاك؟ قالوا: كان محمد قريشاً. قالوا لهم: صدقتم. فان كان القوم صدقوا فلما فضل على الناس لأنّا ذرية محمد، واهل بيته خاصة وعترته، لا يشركنا في ذلك غيرنا. فقال له الرجل: والله إني لأحبكم أهل البيت. قال: فاتخذ للبلاء جلباباً، فوالله إنه لأسرع البنا وإلى شيعتنا من السهل في الوادي، وتبنا يbedo البلاء ثم بكم، وتبنا يbedo الرخاء ثم بكم».<sup>٧</sup>

فما إن بدأ على الرجل علامات الهياج جرّاء استئثارات الامام حتى سارع الامام إلى رسم الطريق أمامه. إنه طريق مفروش بالدماء والدموع، والامام رائد المسيرة على هذا الطريق يصيّب البلاء أو لا قبل أن يصيّب شيعته.

وفي دائرة أضيق نرى أن علاقة الامام بشيعته تتّخذ خصوصيات متميزة، تزاهي بين هؤلاء الاتّباع كالدماغ المفكّر بين أعضاء الجسد الواحد، يغذّيهم ويمدهم بالحيوية والحركة والنشاط باستمرار.

وتنتّوفر بأيدينا وثائق تبيّن هذا الارتباط متمثلاً باعطاء المفاهيم والتعاليم الصريحة لهؤلاء الاتّباع، وبنظام مترابط محسوب بينهم.

منها وصيّة الامام الباقر عليهما السلام لجابر الجعفي في أول لقاء له بالامام أن لا يقول لأحد أنه من الكوفة، ولويظهر بمظاهر رجل من أهل المدينة. وبذلك يعلم هذا التلميذ الجديد، الذي لم يمس الامام فيه قدرة على حفظ الاسرار، درس الكتمان.. وهذا التلميذ الكفوء أصبح بعد ذلك صاحب سرّ الامام. وبلغ به بإلامر مع الجهاز الحاكم أن

(٧) بحار الانوار ٤٦: ٢٦٠  
رواية ١ - باب ١٠٠ نقلأ عن  
امالي الطوسي: ٩٥

يقول عنه النعمان بن بشير:

«كنت ملازمًا لجابر بن يزيد الجعفي، فلما أن كنّا بالمدينة، دخل على أبي جعفر عليه السلام فودعه وخرج من عنده وهو مسرور، حتى وردنا الأخيرة (من نواحي المدينة) يوم جمعة فصلينا الزوال فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل طوال آدم (أسمر) معه كتاب فناوله، فقتله ووضعه على عينيه، وإذا هو من محمد بن علي (الباقر) إلى جابر بن يزيد وعليه طين أسود رطب. فقال له: متى عهدك بستيدي؟ فقال: الساعة فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ قال: بعد الصلاة. قال: ففأني الخامن وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتى أتى على آخره، ثم أمسك الكتاب فما رأيته ضاحكا ولا مسرورا، حتى وافى الكوفة.

يقول النعمان بن بشير: فلما وافينا الكوفة ليلاً بتليلتي، فلما أصبحت أتيت جابر الجعفي إعظاماً له فوجده قد خرج علي وفي عنقه كعباً قد علقها وقد ركب قصبة (كما يفعل المجانين) وهو يقول: أجد منصور بن جمهور.. أميراً غير مأمور وأبياتاً من نحو هذا فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً، ولم أقل له، وأقبلت أبكي لما رأيته، واجتمع علي وعليه الصبيان والناس، وجاء حتى دخل الرحبة، وأقبل يدور مع الصبيان، والناس يقولون: حُنْ جابر بن يزيد. فو الله ما مضت الأيام حتى ورد كتاب هشام بن عبد الملك إلى واليه أن انتظ رجلاً يقال له: جابر بن يزيد الجعفي فاضرب عنقه وابعث اليه برأسه. فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفي؟ قالوا: أصلاح الله كان رجلاً له علم وفضل وحديث، وحج فجن وهو ذا في الرحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم. قال: فأشرف عليه فإذا هو مع الصبيان يلعب على القصب. فقال: الحمد لله الذي عافاني من قتله».<sup>٨</sup>

هذا نموذجٌ من نماذج الارتباط بين الإمام وخاصةً أتباعه، يوضح دقة التنظيم والإرتباط، ويبين كذلك نموذجاً لموقف السلطة الحاكمة من هؤلاء الاتباع، ويؤكد أن الجهاز الحاكم لم يكن غافلاً تماماً عن علاقة الإمام باتباعه المقربين، بل كان يراقب هذه العلاقات ويحاول اكتشافها ومجابتها<sup>٩</sup>.

وبالتدرج يبرز جانب المواجهة في حياة الإمام الباقر عليه السلام وفي حياة الشيعة

(٨) بحار الانوار ٤٦: ٢٨٢ - ٢٨٣  
٢٩٦: ١ نقلًا عن الكافي

(٩) يؤيد هذه الحقيقة،  
الإنسان إلى قضية جابر  
ونظائرها، رواية عبدالله بن  
معاوية الذي يسلم الإمام  
الباقر عليه السلام تهديد من  
حاكم المدينة (بحار الانوار  
٤٦: ٢٤٦. الباب ١٦ الرواية  
٢٤).

ليسجل فصلا آخر في حياة أئمة أهل البيت عليهما السلام.

النصوص التاريخية الموجودة بين أيدينا وهكذا الروايات الحديثة لا تتحدث بصراحة عن حركة مقاومة سياسية حادة ينهض بها الامام. وهذا يعود الى عوامل كثيرة منها حق البطش والتنكيل المهيمن على المجتمع مما يفرض عنصر التقبة بين اتباع الامام الذين هم المطلعون الوحيدين على حياة الامام السياسية.. ولكن ردود الفعل المتشددة التي يبديها العدو تبين عمق العمل الجهادي. فحين يتخد جهاز حاكم مقتدر كجهاز عبد الملك بن مروان، الذي يعتبر اقوى حاكم اموي، ضد الامام الباقر عليهما السلام كل اسباب الشدة والحدة، فان ذلك يدل دون شك على إحساس الخليفة بالمخاطر التي تواجهه جراء حركة الامام واتباعه. لو كان الامام منهمكا فقط بنشاط علمي، لا ببناء فكري وتنظيمي، فان الجهاز الحاكم لم يكن من مصلحته أن يتشدد مع الامام، لأن ذلك يدفع بالامام وبأتباعه الى موقف ساخط متشدد كالذى اتخذه الثائر العلوي شهيد فتح الحسين بن علي من السلطة.

باختصار موقف السلطة المتشدد من الامام الباقر عليهما السلام يمكن فهمه على أنه رد فعل لما كان يمارسه الامام من عمل معارض للسلطة.

من الأحداث الهامة في اواخر حياة الامام الباقر عليهما السلام استدعاء الامام الى الشام عاصمة الخلافة الاموية. فالخليفة الاموي أراد أن يستوثق من موقف الامام تجاه الجهاز الحاكم فأمر باعتقاله وارساله مخفورة الى الشام. (وفي بعض الروايات أن الحكم هذا شمل ابنه الشاب أيضاً جعفر الصادق).

يؤتى بالامام الى قصر الخليفة. وهو شام أملى على حاشيته طريقة مواجهة الامام لدى وروده. تقرر أن يبتدىء الخليفة ثم تليه الحاشية بالقاء سيول التهم على الامام، وكان يستهدف في ذلك امررين: اولهما اضعاف معنويات الامام وخلق حالة من الانهيار النفسي فيه. والثاني: محاولة ادانة الامام في مجلس يضم زعيمي الجبهتين (جبهة الخلافة وجبهة الامامة)، ثم نقل هذه الادانة عن طريق ابواق البلاط كالخطباء ووعاظ السلاطين والجواسيس وبذلك يسجل لنفسه انتصارا على خصمه.

يدخل الامام مجلس الخليفة، وخلاف ما اعتقاده الداخلون من السلام على

(١٠) بحار الانوار: ٤٦، ٢٦٣.  
رواية ٦٢ باب ٥.

(١١) بحار الانوار: ٤٦، ٢٦٤.  
الباب ١٦ الرواية ٦٣.

(١٢) ويروى أنه أشاع بين اهالي المدن الواقعة على الطريق أن محمد بن علي ومحفر بن محمد تنضرا وخرجما من الاسلام (بحار الانوار: ٤٦، ٣٠٦). وشبّيه ذلك ما وقع لمولانا وهو من زعماء الحركة الاسلامية المناضلة للاستعمار البريطاني في منتصف القرن التاسع عشر. فقد أشاعوا عنه أنه وهابي وكانت هذه التهمة كافية لاسقاط هذا الرجل المناضل من أعلى الناس البسطاء السُّجُون الوهابية كانت مقرونة في اذهان الناس بتلك العصابة التي رَوَّعت حجاج بيته اللّه واستباحت دماء المسلمين في الحجاز. فكانت كريهة لديهم ومفيدة. وتهمة الوهابية المفتت بهذا الرجل فتقليلها الادهان السانحة دون أن تسأل عن مبرر هذه التهمة وعن امكان أن يكون رجل مناضل مثل مولانا معتقداً لفكرة جاء بها الانجليز الى العالم الاسلامي (راجع كتاب المسلمين في حركة تحرير الهند (بالفارسية) ط

الخليفة بإمرة المؤمنين، يتوجه إلى كل الحاضرين، ويشير اليهم جميعاً ويقول: السلام عليكم.. ودون أن ينتظر الاذن بالجلوس يأخذ مكانه في المجلس. وهذا الموقف من الامام أضرم نار الحسد والحقن في قلب هشام.. وببدأ هشام على الفور يقول: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شقّ عصا المسلمين، ودعا إلى نفسه، وزعم أنه الامام سفهاً وقلة علم، وجعل يوبخه<sup>١٠</sup>.

وبعد هشام أخذ أفراد بطانته يرددون مثل هذه التهم والتوبخ.. والامام ساكت في كل هذه المدة ومطرقاً بوقار ينتظر فرصة الاجابة.. وحين افرغت البطانة ما في كنانتها وختم السكت على المجلس، نهض الامام وتوجه إلى الحاضرين، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، خاطب المجلس بعبارات قصيرة فارعة بين تفاهة هذه البطانة وانقيادها البهيمي كما بين فيها مكانته ومكانة أهل البيت وفق معايير اسلامية، واستخف بكل ما يحيط بال الخليفة وحاشيته من هيل وهيلمان ومكانة وسلطان، فقال:

«إيها الناس! أين تذهبون؟ وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم، وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملك معجل، فإن لنا ملكاً مؤجلأ، وليس بعد ملكنا ملك، لأنّا أهل العاقبة، يقول الله عزّ وجلّ: والعاقبة للمتقين»<sup>١١</sup>.

عبارات تظلم وتهكم وتثير وتهديد وإثبات وردّ في جمل موجزة ذات وقع مثير تفرض على سامعها الایمان بحقيقة قائلها.. ولم يكن أمام هشام سبيلاً سوى الامر بسجن الامام.

الامام في سجنه واصل عمله التغييري فأثر على من معه في السجن. بلغ الامر هشاماً فكثير عليه أن يرى حدوث مثل ذلك في عاصمته المحصنة من التأثير العلوي. فأمر أن يؤخذ السجين ومن معه على مركب سريع (البريد) ويرسل إلى المدينة حيث مسكنه ومحل إقامته، وأمر أن لا يتعامل أحد في الطريق مع هذه القافلة المغضوب عليها ولا يزودها بماء أو طعام<sup>١٢</sup>.

مرت ثلاثة أيام من السير المتواصل انتهى خلالها ما في القافلة من ماء وطعام. ووصلوا «مدين». وأغلق أهل المدينة حسب ما لديهم من أوامر ابواب مدinetهم، وأبوا أن يبيعوا متاعاً. اشتد على أتباع الامام الجوع والعطش. صعد الامام على

مرتفع يطل على المدينة ونادى بأعلى صوته:  
يا أهل المدينة الظالم أهلاها، أنا بقية الله. يقول الله: **﴿بَقِيَةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنُينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾**.

يقول الراوى: وكان بين أهل المدينة شيخ كبير فأتاهم فقال: يا قوم هذه والله دعوة شعيب عليه السلام . والله لئن لم تخرجو الى هذا الرجل بالأسواق لتوخذن من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدقوني واطيعوني.. فاني لكم ناصح استجاب أهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا وأخرجوا الى أبي جعفر واصحابه الاسواق .<sup>١٣</sup>

وآخر فصل في هذه الرواية يبين أيضاً بطش الخليفة العباسى وتجبره. فبعد أن فتح أهل المدينة أبوابها للامام وصحابه، كتب بجميع ذلك الى هشام. فكتب هشام إلى عامله على مدین يأمره بأن يأخذ الشيخ فيقتله رحمة الله عليه وصلواته .<sup>١٤</sup>

ومع كل ذلك، يتجنب الامام أي مواجهة حادة ومجابهة مباشرة مع الجهاز الحاكم. فلا يعمد الى سيف، ولا يسمح للإيدي المتسرعة الى السلاح أن تشهره، ويوجهها توجيهاً حكيمًا، ويسيف اللسان أيضًا لا يشهره إذا لم يتطلب عمله التغييري الأساسي الجذري ذلك. ولا يسمع لأخيه زيد، الذي بلغ به الغضب مبلغه وثارت عواطفه أيمًا ثوره أن يخرج (يثور) بل يركز نشاطه العام على التوجيه الثقافي والفكري.. وهو بناء أساس ايديولوجي في إطار مراعاة التقى السياسية.  
ولكن هذا الاسلوب لم يكن يمنع الامام - كما اشرنا - من توضيح «حركة الامامة» لاتباعه الخالص. وإذكاءأمل الشيعة الكبير وهو إقامة النظام السياسي بمعناه الصحيح العلوي في قلوب هؤلاء، بل يعمد أحياناً إلى إثارة عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطريق. والتلويع بمستقبل مشرق من السبل التي مارسها الامام الباقر عليه السلام مع أتباعه. وهو يشير أيضًا إلى تقويم الامام عليه السلام للمرحلة التي يعيشها من الحركة.

يقول الحكم بن عبيدة: بينما أنا مع أبي جعفر عليه السلام والبيت غاص بأهله إذ أقبل شيخ يتوكل على عنزة (عكانة) له حتى وقف على باب البيت فقال: السلام عليك يابن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثم سكت أبو جعفر: وعليك السلام ورحمة

آسيا) حين ارى موقف الناس من الإمام الباقر عليه السلام . بعد اتهامه بالنصرانية في تلك الزمان و موقفهم من مولانا بعد اتهامه بالوهابية في القرن الماضي انتسب من وحدة المواقف، وإنما ما يقوله الشاعر العربي: الناس كالناس وال أيام واحدة.

(١٢) بحار الأنوار ٤٦: ٢٦٤.

(١٤) بحار الأنوار ٦٦: ٣١٣.

الله وبركاته. ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال: السلام عليكم، ثم سكت حتى أجابه القوم جميعاً، ورددوا عليه السلام. ثم أقبل بوجهه على الإمام وقال: يا بن رسول الله أدنني منك جعلني الله فداك. فوالله إني لأحبكم وأحب من يحبكم، ووالله ما أحبابكم وأحب من يحبكم لطبع في دنيا، وإنني لأبغض عدوكم وأبراً منه، ووالله ما أبغضه وأبراً منه لو ترى كان بيبي وبيته. والله إني لأحل حلالكم واحرم حرامكم، وانتظر أمركم، فهل ترجو لي جعلني الله فداك؟ فقال الإمام: إلى أي، حتى أقده إلى جنبه ثم قال:

«ابنها الشیخ ابن ابی علی بن الحسین علیہما السلام آتاه رجل فسأله عن مثل الذي سأله عنی عنه فقال له أبی علیهما السلام: إن تعمت قردا على رسول الله علیہما السلام وعلى علی والحسن والحسین وعلى علی بن الحسین، ويثلج قلبك، ويبرد فؤادك، وتقر عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين... وإن تعيش ترى ما يقر الله به عينك، وتكون معنا في السنام الاعلى». قال الشیخ وهو مندهش من عظمة البشیری: كيف يا ابا جعفر؟ فعاد عليه الكلام، فقال الشیخ: الله اکبر يا ابا جعفر إنانا مُت أرد على رسول الله علیہما السلام وعلى علی والحسن والحسین وعلى بن الحسین وقر عیني ويثلج قلبي ويبرد فؤادي وأستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي هنا، وإن أعيش ارى ما يقر الله به عیني، فلکون معکم في السنام الاعلى؟ ثم أقبل الشیخ يتحبب حتى لصيق بالأرض. وأقبل اهل البيت ينتحبون لما يرون من حال الشیخ. ثم رفع الشیخ رأسه وطلب من الإمام ان يتناوله يده فقبلها ووضعها على عینه وخذّه، ثم ضمّها الى صدره، وقام فوتّع وخرج والامام ينظر اليه ويقول: «من أحب أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا».<sup>١٥</sup>

مثل هذه التصريحات، تذکی روح الامل في قلوب تعيش جو الااضطهاد والکبت، فتکسبها رخما وبدفعا نحو الهدف المنشود المتمثل في إقامة النظام الاسلامي العادل.

تسعة عشر عاما من إماما الباقر علیہما السلام تواصلت على هذا الخط المستقيم المتماسك الواضح.. تسعة عشر عاما من التعليم الايديولوجي، والبناء، والتكتيك النضالي، والتنظيم، وصيانت وجهة الحركة، والثقة، واذكاء روح الامل.. تسعة

(١٥) بحار الانوار ٤٦: ٣٦٢

٣٦٣

عشر عاماً من مسيرة شائق وعر يتطلب كثيراً من الجد والجهد. وحين أشرفت هذه الأعوام على الانتهاء وأوشكت شمس عمره المبارك على المغيب، تنفس أعداؤه الصعداء، لأنهم بذهاب هذا القائد الموجّه سوف يتخلصون من مصدر إثارة طالما قضى مضاجعهم وسرق النوم من عيونهم. لكن الإمام خاتم آمالهم وفوقت عليهم هذه الفرصة، حين جعل من وفاته مصدر عطا، ومنطلق إشارة، ووسيلة توعية مستمرة! لقد وجّه ولده الصادق عليه السلام في اللحظات الأخيرة من حياته توجيهها يمثل نموذجاً رائعاً من نماذج التقة التي مارسها الإمام الباقر عليه السلام والأسلوب الذي استعمله في مرحلته الزمنية الخاصة. في الرواية عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «قال لي أبي: يا جعفر اوقف لي من مالي كذا وكذا لغوايد تندببني عشر سنين يعني أيام مني».<sup>١٦</sup>

(١٦) بخار الانوار ٤٦: ٥٢٠.

وهذه الرواية لم يقف عندها من يبحث في حياة الإمام الباقر وغفلوا عما فيها من دلالات كبيرة. لقد خلف الإمام (٨٠٠) درهماً، وأوصى أن يخصص جزء منها لمن ينذر في مني.. ونذر الإمام في مني له معنى كبير، إنه عملية إحياء ذلك المصدر الذي كان يشع دائماً بالتوّعية والإثارة وخلق روح الحماس والمقاومة.

واختيار مني بالذات يعني موافقة العمل في وسط تمركز الوافدين من كل أرجاء العالم الإسلامي، خلال فترة الاستقرار الوحيدة في موسم الحج. فكل مناسب الحج يمرّ بها الحاج وهو في حركة دائبة مستمرة، إلا في مني حيث يبيت الليلتين أو الثلاث، فيتوفر لديه الوقت الكافي لكي يسمع ويطلع. ونذر الإمام في هذا المكان سيثير التساؤل عن شخصية هذا المتوفّي من هو؟ فيحصلون على الجواب من أهل المدينة الذين عاصروه. إنه من أبناء رسول الله واستاذ الفقهاء والمحدثين. ولماذا ينذر في هذا المكان؟ الم يكن موته طبيعياً؟ من الذي قتله أو سرقه؟ هل كان يشكل خطراً على الجهاز الاموي؟... عشرات الاسئلة كانت تثار حين ينذر الإمام في هذا المكان. ثم يحصل السائلون على الإجابة.. وتنتشر الاخبار في اطراف البلاد واكتافها بعد عودة الحجيج إلى أوطانهم. وكان هناك في مواسم الحج من يأتي من الكوفة والمدينة ليجيب عن هذه التساؤلات مفتتحاً فرصة تجمع المسلمين، ولبيث روح التشريع من خلال أعظم قناة إعلامية آنذاك.

(١٧) خالد بن عبد الله القسري والي العراق كان عائد السنوي ثلاثة عشر مليوناً وكتب إليه الخليفة أن لا يبيع غلته قبل بيع غلة الخليفة. فصعد خالد المنبر وذكر أن قوماً يتهمونه بالتلاءب بالأسعار، ولعن من يتلاعب بالأسعار (ويقصد بذلك الخليفة وكان عليه واحداً) وأمرأة هشام كان لها ذوب خيوطه من الذهب ومرصع بالمجوهرات القيمة، وقد نقل وزنه حتى ما كانت تقدر على أن تعيش به، ولم يستطع أحد أن يضع له قيمة. وهشام نفسه كان له بساط من الحرير والذهب طوله ١٠٠ ذراع وعرضه ٥ ذراعاً (ابن ايرج ٥ / ٢٢٠، وبين الخفاء والخلفاء من ٥٦ و٢٨).

(١٨) من ذلك فتوى الحسن البصري في عدم جواز الخروج على الحاج بن يوسف تلك الطاغية الذي سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام وترك الصلاة قائلاً أرى أن لا تقاتلوه فإنها إن تكون عقوبة من الله فما أنت برادي عقوبة الله بأساليبكم وإن يكن بلاه فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحكمين (نظيرية الامامة لدى الشيعة الثانية عشرية، د. أحمد

هكذا عاش الإمام، وهكذا خطط لما بعد وفاته فسلام عليه يوم ولد ويوم جاهد ويوم استشهد في سبيل الله ويوم يبعث حياً.

توفي الإمام الباقر عليه السلام وهو في السابعة والخمسين من عمره، على عهد هشام بن عبد الملك، وهو من أكثر ملوك بني أمية اقتداراً. ورغم ما كانت تحيط بالحكومة الاموية آنذاك من مشاكل ومتاعب فان ذلك لم يصرفها عن التآمر على القلب النابض للشيعة أي الإمام الباقر، فأوزع هشام إلى عمالة أن يدُسوا السُّم للامام، وحقق بذلك انتصاره في القضاء على أخطر أعدائه.

وتحمل الإمام الصادق عليه مسؤولية مواصلة المسيرة في ظروف معقدة وصعبه للغاية.

فالانتفاضات تتشبث في طول البلاد وعرضها، والولاية منهمكون بجمع الأموال والثروات الطائلة<sup>١٧</sup>، والطاعون والقطط يضر布 مناطق واسعة منها خراسان والعراق، والجهاز الحاكم يبيطش دون رحمة ويخلق حالة من الذل والخنوع بين الناس. والمنشغلون بالعلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير لم يكن خطفهم غالباً يقل عن خطر الساسة والحكام، وهم الذين يفترض بهم أن يكونوا ملائكة الناس وملجأهم، كثير من هؤلاء كانوا يدّتجون الفتاوي ليرضوا السلطان والولاية<sup>١٨</sup>. وكثيرٌ منهم كانوا يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بتوفيق الأمور وينثرون التزاعات الكلامية الفارغة التي لا تمت بصلة إلى الإسلام وإلى معاناة الجماهير.

أهمية الإمام الصادق عليه في هذه الظروف العظيمة هي ما ذكرناه بشأن مهمة الإمام، وتتلخص في طرح الفكر الإسلامي الصحيح، أي تبيين الإسلام كما جاء في القرآن وسنة رسول الله عليه السلام مع مكافحة كل الانحرافات والتشویهات الجاهلة والمغرضة، وكذلك التخطيط لإقامة نظام العدالة الإسلامية وصيانة هذا النظام في حالة إقامته.

كلا المهمتين: المهمة الفكرية والمهمة السياسية تشكلان خطراً كبيراً على النظام الحاكم. ليست المهمة السياسية وحدها تثير سخط السلطة فالمهمة الفكرية أيضاً تلغي تلك الأفكار والمفاهيم المنحرفة التي قدمها السلطان ووعاظه باسم الدين إلى المجتمع<sup>١٩</sup>. من هنا فإن العملية الفكرية لها الأولوية لأنها تقضي على

محمود حبشي، ص ٢٢).

(١٩) مع كل الانحرافات التي عصفت بالمجتمع كان اليمان بالدين يسيطر على الانكار والقلوب، والظلمة الطغاة استغلوا هذا اليمان، فقدموا للمجتمع مفاهيم منحرفة باسم الدين تخمن بقامهم واستمرار ظلمهم وتحكمهم. من ذلك اضفاء صفة القدسية على «البيعة». فكلما تمازى الخليفة في غيره وظلمه لا تجوز معصيته ولا الثورة عليه لأن له في الاعناق بيعة! وكان لهذا المفهوم دوره الكبير في خلق حالة من الخضوع والخنوع أمام الجهاز الحاكم.

الزيف الديني الذي يستند اليه الجهاز الحاكم في مواصلة ظلمه. من جهة اخرى فان الاوضاع السائدة مستعدة للفكر الشيعي الشوري وال الحرب والفقير والاستبداد عوامل تغذي روح الثورة، اضف الى ذلك عامل الاجواء التي وقّرها نشاط الامام الباقر عليه السلام في المناطق القرية والنائية.

ان الاستراتيجية العامة للامامة هي النهوض بثورة توحيدية علوية. ومتطلباتها هي:

اولاً: ايجاد مجموعة تحمل فكر الامامة وتهضمها وتتطلع بشوق الى تطبيقه.  
وثانياً: ايجاد مجموعة منظمة مجاهدة مضحية.

وهذه المتطلبات تستلزم بدورها نشر الدعوة في جميع أرجاء العالم وإعداد الأرضية النفسية لقبول الفكر الاسلامي التأثير في جميع الاقطار، وتستلزم أيضاً دعوة أخرى لإعداد افراد مضحين متقاتلين يشكلون التنظيم السري للدعوة.

وهذا هو سرّ صعوبة الدعوة على طريق الامامة الحقة. فالدعوة الرسالية التي تستهدف القضاء على الطاغوت وعلى التفرعن والتجرّ والعداون والظلم في المجتمع وتلتزم بالمعايير الاسلامية، لا بدّ أن تستند الى ارادة الجماهير وقوتها وأيمانها ونضجها. خلافاً لتلك الدعوات التي ترفع شعار محاربة الطغاة، وهي تمارس في الوقت نفسه أعمال الطغاة والظلمة في حركتها دون أن تتقيد بمبادئ أخلاقية واجتماعية، فمثل هذه الدعوات لا تواجه صعوبات الدعوات الرسالية الهدافة. وهذا هو سرّ عدم تحقق أهداف حركة الامامة على المدى العاجل، وهو ايضاً سرّ الانتصار السريع للحركات الموازية لحركة الامامة (مثل حركة العباسين).

الظروف المساعدة والارضية المناسبة التي وقّرها نشاط الامام السابق - الباقر عليه السلام - أدت الى أن يظهر الامام الصادق عليه السلام - في جو العذاب الطويل الذي عانى منه الشيعة - بمظاهر الفجر الصادق الذي ينتظره اتباع أهل البيت في سالف أيامهم. والامام الباقر عليه السلام ذكر بالاشارة والتصريح ما يركز هذا المفهوم.

عن جابر بن يزيد الجعفي: «سئل الامام الباقر عليه السلام عن القائم فضرب بيده على ابي عبدالله عليهما السلام وقال: هذا والله ولدي قائم آل بيت محمد عليهما السلام».<sup>٢٠</sup>

(٢٠) بحار الانوار ٤٧: ٤٢  
باب ٣ الرواية ٦ ط بيروت

والقائم هنا طبعاً غير قائم آل محمد في آخر الزمان وهو المهدى عليهما السلام الذي تواترت الروايات لدى كل المسلمين أنه يظهر في آخر الزمان وأنه الخليفة الثاني عشر من خلفاء رسول الله. القائم هنا بمعناه اللغوي ينطبق على كل من ينهض بوجه الظلم والاستبداد، وهو اصطلاح معروف في مدرسة أهل البيت، ولا يعني ذلك أن يكون القائم بالسيف بالضرورة. بل إنه يقوم بهجوم ثقيل خطير سواء في أسلوب النشاط الفكري أو التنظيمي او بأية صورة أخرى تستهدف مقارعة الظالمين ومحاجتهم. فالامام الباقر عليهما السلام يركز هنا على مفهوم نهوض الامام الصادق عليهما السلام بمسؤولية كبيرة تجاه السلطة القائمة، ولا يركز على النتيجة.. بل في رواية أخرى يتحدث بلغة تكاد تكون يائسة من امكان انتصار حركة الامامة على الوضع السياسي القائم.

ومن الروايات التي يركز فيها الامام الباقر عليهما السلام على الدور الذي سينهض به الامام الصادق عليهما السلام ما رواه ابو الصباح الكتاني قال: «نظر ابو جعفر الى ابنه ابي عبد الله فقال: ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُنْهَا نُنْهَى عَلَى الْأَرْضِ فَنَصَرَفُوهَا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أَثْمَةً وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ﴾»<sup>٢١</sup>. ولعل تصريحات الامام هذه هي التي أشاعت فكرة قيام الامام الصادق وخلافته بين الشيعة، وجعلت أصحاب الباقر والصادق عليهما السلام يتربّون ساعة الصفر بين آونة وأخرى.

في رجال الشيخ الكشي رواية يمكن أن نفهم منها هذه الحالة السائدة بين اتباع أهل البيت آنذاك:

روى ابن مسكان عن زراة انه سأله ابا عبد الله عليهما السلام عن رجل من اصحابنا مخفِّي من غرامة. فقال: اصلاحك الله ان رجلاً من اصحابنا كان مخفِّياً من غرامة فان كان هذا الامر قريباً صبر حتى يخرج مع القائم، وان كان فيه تأخير صالح غرامه؟ فقال له ابو عبد الله عليهما السلام: يكون، فقال زراة: يكون الى سنته؟ فقال ابو عبد الله عليهما السلام: يكون ابن شاء الله، فقال زراة: يكون الى سنتين؟ فقال ابو عبد الله عليهما السلام: يكون ابن شاء الله، فخرج زراة فوطّن نفسه على ان يكون الى سنتين فلم يكن، فقال: ما كنت ارى جعفرا الا اعلم مما هو<sup>٢٢</sup>.

(٢١) بحار الانوار: ٤٧: ٤٧  
باب ٢ الرواية ٤ عن الارشاد:

٢٨٩

(٢٢) رجال الكشي: ١٥٨ ط:  
مصطفوي

وعبارة «هذا الامر» في عرف اتباع اهل البيت كنایة عن المستقبل الموعود لهم، أي استلام زمام الحكم أو القيام بما يقربهم من ذلك كالثورة المسلحة مثلاً. والقائم هو الذي يقود تلك العملية.

وفي رواية أخرى يذكر هشام بن سالم، وهو أيضاً من وجوه الشيعة المعروفة أن زرارة قال له: لا ترى على اعوادها غير جعفر، قال: فلما توفي ابو عبدالله عليهما السلام اتيته فقالت له: تذكر الحديث الذي حدثتني به؟ وذكرته له، وكتت اخاف ان يجحدني، فقال: اني والله ما كنت قلت ذلك الا برأيي .<sup>٢٢</sup>

من مجموع ما تقدم نفهم أن الإمام الصادق عليهما السلام كان في نظر أبيه وفي نظر الشيعة مظهر آمال الإمامة والتشيع. وكان سلسلة الإمامة قد ادخلته ليجسد مساعي الإمام السجاد والإمام الباقر عليهما السلام. كأنه هو الذي يجب أن يعيد بناء الحكومة العلوية والنظام التوحيدى، يجب أن ينهض نهضة إسلامية أخرى. الإمامان السابقان طويلاً المراحل الصعبة الشاقة لهذا الطريق اللاحل وعليه أن يقطع المرحلة الأخيرة، والظروف - كما ذكرنا - قد تهيأت، والإمام استمر هذه الظروف لينهض برسالته الحسينية.

منذ بداية استلام المسؤلية حتى الوفاة قضى ٣٣ عاماً في جهاد متواصل، وخلال هذه الأعوام كانت الظروف في مذ وجزر، مرة تتجه لصالح مدرسة أهل البيت ومرة أخرى تعاكسها، مرة تبعث على التفاؤل وعلى أن النصر قريب، ومرة أخرى تشتد الضغوط وتختنق الانفاس فيخيل إلى أصحاب الإمام أن كل الآمال قد تبددت. والإمام الصادق عليهما السلام في كل هذه الاحوال ماسك بدقة القيادة بعزم وتصميم يختار بالسفينة عبر هذه الأمواج المتلاطمـة الممزوجـة بالامل واليأس، لا يفكـر إلا بما يجب قطعـه في المستقبل من أشواطـ، باعثـا الجـدـ والنشـاطـ والإيمـانـ في اتباعـه للوصـولـ إلى سـاحـلـ النـجاـةـ.

ويلزمنا هنا أن نشير إلى ظاهرة مؤسفة تواجه كل الباحثين في حياة الإمام الصادق عليهما السلام، وهي الغموض الذي يكتنـ السـنـينـ الأولىـ لـ بداـياتـ إـمامـةـ الصـادـقـ عليهـماـ السـلامـ التي اقترنـتـ بأـخـرـ أيامـ بنـيـ أمـيـةـ. كانتـ حـيـاةـ صـاحـبةـ مـتـلاـطـمـةـ مـلـيـةـ بـالـحوـادـثـ الجـسـامـ، يمكنـ أنـ نـفـهمـ بـعـضـ مـلـامـحـهاـ منـ خـلـالـ مـئـاتـ الرـوـاـيـاتـ. غيرـ أنـ المؤـرـخـينـ

(٢٣) رجال الكشي: ١٥٦ - ١٥٧  
ط: مصطفوي.

والمحدثين لم يعرضوا لنا هذه الفترة بشكل مرتب منسجم متراابط، ولا بد للباحث أن يعتمد على القرائن، وأن يلاحظ التيارات العامة في ذلك الزمان، ويقرن كل روایة بما حصل عليه من معلومات مسبقة ليفهم محتوى الرواية وتفاصيلها.

ولعل أحد أسباب هذا الابهان يمكن في سرية حركة الامام واتباعه.. فالتنظيم السري القائم على أساس صحيحة يجب أن تبقى المعلومات عنه سرية مخفية، وأن لا يطلع عليها من هو خارج التنظيم. ولا تنتشر هذه المعلومات إلا بعد أن تتحقق الحركة انتصارها. ومن هنا تتوفر لدينا معلومات وافية عن تفاصيل الاتصالات السرية في حركة العباسين، لأن حركتهم انتصرت. ولا شك أن حركة أهل البيت لو قدر لها أن تنتصر وتستم زمام الأمور لاطلعا اليوم على أسرار تنظيمها الواسع.

وتفة سبب آخر يمكن أن يكون عاملا في هذا الغموض هو أن المؤرخين كانوا يدونون عادة ما يرضي السلطان، ولذلك نرى في كتبهم تفاصيل حياة الخلفاء ولهوهم ولعبهم وسهراتهم ومجالس طربهم، بينما لا نرى شيئاً يؤبه له بشأن النافذين والمظلومين والمسحوقيين، لأن مثل هذه المعلومات تحتاج من الباحث أن يتحرى ويبحث ويختار، بينما حياة الخلفاء مادة جاهزة وغنية باردة تكسب الرضا وتستدر العطاء.

والمؤرخون الخاضعون للخلافة العباسية استمروا يكتبون على هذا المنوال مدة خمسماة سنة بعد حياة الامام الصادق عليه السلام، ومن هنا لا يمكن أن تتوقع العثور على شيء معندي به من المعلومات عن حياة الامام الصادق عليه السلام أو أي إمام من آئمه الشيعة في مثل هذه المصادر.

الطريق الوحيد الذي يستطيع أن يهدينا إلى الخط العام لحياة الامام الصادق عليه السلام هو اكتشاف المعالم الهامة لحياة الامام من خلال الاصول العامة لفكرة الامام وأخلاقه. ثم نبحث في القرائن والادلة المنتشرة التاريخية والقرائن الأخرى غير التاريخية لتوصل إلى التفاصيل.